

# الانسان ذو البعد الواحد

بقلم هورج طرابيشي

حين ان فانون حاول ان يوضح لم أمست الثورة ضرورية وممكنة في عالم تتقدم فيه القوة الكلاسيكية للثورة ، وفي حين ان ماركوز يحاول ان يوضح لم أمست الثورة بحكم اللاغية والمستحيلة في عالم تتوفر فيه القوة الكلاسيكية للثورة ، نجد ان نقادها والمفترين عليهما يحاولون تجريمهما بتهمة التحريفية من وجهة النظر الثورية الكلاسيكية على وجه التحديد .

ان الثورة هي في خاتمة المطاف ممارسة ، والنظرية الثورية التي تعجز عن التحول الى ممارسة تصبح عقبة في وجه الممارسة الثورية اذا كانت تدين هذه الممارسة لا لشيء الا لانها تخرج على الخططات الكلاسيكية للنظرية . وبديهي اننا لا نكر هنا الدور الحاسم للنظرية ، ولكننا نبيد تخوفنا من ان تتحول النظرية باسم الحرص على أصولها الكلاسيكية الى سكوالية جامدة متحجرة . والحق ان ادانة تطورات فانون او ماركوز النظرية بتهمة التحريفية والنزعة الذاتية لا يمكن ان تتم الا من وجهة نظر سكوالية الثورة لا من وجهة نظر كلاسيكيتها ، هذا اذا ما فهمنا الكلاسيكية على انها ميزة النظرية التي تملك من الشمول القدر الذي يتيح لها ان تعانق عصرا برمتها ، ومن الديناميكية القدر الذي يتيح لها ان تبقى حية وصحيحة على مدى أكثر من عصر واحد . والماركسية ترقى على اساس هذا التعريف الى مصاف الكلاسيكية بدون ادنى نقاش . ولكنها لم ترق اليه ولا ترقى اليه اليوم الا لانها كانت من الاساس ، وفي منهجها بالذات ، نظرية مفتوحة ترفض باصرار وعنناد وحيوية ان تلجم مفاهيمها وموضوعاتها ونقاط انطلاقها ووصولها وتحبس في اسار ما يحلو للبعض ان يسميه بالاصول الكلاسيكية .

ان من السهولة بمكان رفض الفانونية او الماركوزية ( كما رفضت من قبل الفرويدية والوجودية ) بحجة انها تقفان ( خارج معسكر ايدولوجيا الطبقة العاملة ) . (1) ولكن أين تبدأ حدود المعسكر الايدولوجي للطبقة العاملة واين تنتهي ؟ وعلى فرض أننا نستطيع ان نحدد حدود هذا المعسكر ، فهل هذا معناه ان ما ليس موجودا الآن ضمن حدود هذا المعسكر لا يمكن ان ينتمي اليه في المستقبل ؟ واذا كانت التطورات النظرية الجديدة لا تتمتع بامتياز دخول هذا المعسكر الا اذا كانت موجودة فيه أصلا ، فكيف يمكن وصفها في هذه الحال بانها جديدة ؟ أم ان هذا المعسكر هو بمثابة « كنيسة » ، معتقداتها ثابتة دائمة ، بل أبدية أزلية ، لا يحق لبني البشر ان يفسروها او يطوروها الا اذا داروا في حلقة مفرغة وانتهوا من حيث بدأوا ؟ وفي حال تجاوزهم هذه الحدود المرسومة سلفا تنزل بهم تهمة الهرطقة او التحريفية او النزعة الذاتية او ما شئت من التسميات !!

داخل او خارج معسكر ايدولوجيا الطبقة العاملة ؟! ولكن كيف يمكن الانطلاق من هذه الصيغة لتقييم مشروع نظري يحاول ان يشرع لقيام الثورة في عالم لا وجود فيه للطبقة العاملة شأن مشروع فانون ، او مشروع نظري يحاول ان يفسر استمالة الثورة او على الاقل ارجاءها الى

قيل عن فانون انه اول من اعاد ، بعد ماركس ولينين ، اكتشاف قوانين التاريخ في كتابه « معذب الارض » .

وبمثل هذا الحكم أيضا يمكن تقييم محاولة هيرت ماركوز في كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » ، الذي تقدمه اليوم للقارئ العربي . ولكن مع فارق جوهرى .

فانون انما يتوجه اساسا الى العالم الثالث ، في حين ان ماركوز يتوجه الى الولايات المتحدة واوربا الغربية .

واذا كانت صورة « معذب الارض » تعكس صورة انسان البلدان المتخلفة اقتصاديا ، فان صورة « الانسان ذي البعد الواحد » تعكس صورة انسان البلدان الصناعية المتقدمة .

وما دمنا في صدد اعادة اكتشاف قوانين التاريخ او صياغتها ، فننقل من الآن ان تاريخ العالم لم يعد على ما يخيل لنا واحدا ، لان العالم نفسه لم يعد واحدا .

بالطبع ، نحن نستطيع ان نقيم أكثر من صلة ورابطة بين عالم التخلف الاقتصادي وعالم التقدم الصناعي ، ومن الممكن بسهولة ان نثبت ان العالم الثاني هو الذي خلق الاول الى حد بعيد ، ولكن هذا لا يغير شيئا من حقيقة اننا اليوم امام عالمين متمايزين ومتباينين وربما متناحرين نوعيا .

ان ثنائية عالمنا المعاصر هي التي جعلتنا نقسرن بين اسمي فانون وماركوز بالرغم من ان ( او لان ) لغتهما ليست واحدة ، وانسانهما ليس واحدا ، والعالم الذي يتوجهان اليه ليس واحدا .

ان ما حاول فانون ان يكشف عنه النقاب او يصوغه في صورة قانون تاريخي هو : لماذا اصبحت الثورة ضرورية وممكنة بل حتمية في عالم بات يعي انه ليس امامه ما يخسره غير اغلاله ؟ اما ما يحاول ماركوز ان يكشف النقاب عنه فهو : لماذا باتت الثورة مستبعدة وغير محتملة بل مستحيلة في عالم يخشى ان يفقد مع الثورة امتيازاته ؟

واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان نقطة انطلاق كل من فانون وماركوز واحدة ، ونعني بها النظرية النقدية الكبرى او النظرية الماركسية الثورية ، يصبح في وسعنا ان نصوغ على النحو التالي السؤالين اللذين حاول كل من فانون وماركوز الاجابة عليهما في السياق الخاص لعالم كل منهما :

ان السؤال الاول بالنسبة الى فانون هو كيف يمكن ان تقوم الثورة في عالم لا وجود فيه للقوة الكلاسيكية ، للثورة الاشتراكية ، ونعني الطبقة العاملة الصناعية ؟

اما السؤال الاول بالنسبة الى ماركوز فهو كيف ان الثورة لم تتحقق بل باتت شبه مستحيلة في عالم يمتلك منذ أكثر من قرن القوة الكلاسيكية للثورة ، أي البروليتاريا الصناعية ؟

ولقد انصبت على كل من فانون وماركوز ، في محاولتهما الاجابة على هذين السؤالين ، اتهامات مؤسفة بالنزعة الذاتية والذاتية وبالخروج على التصورات الاساسية للنظرية الماركسية . بيد ان تلك الاتهامات تشكو على وجه الاجمال من عيب اساسي مشترك وهو ما اصطلح المناطقة على تسميته منذ اقدم الازمان بالمصادرة على البرهان . ففي

١ - انظر على سبيل المثال مجلة « دراسات عربية » - عدد اذار

اجل غير مسمى في عالم لم تعد فيه الطبقة العاملة بمعناها الثوري موجودة ، شأن مشروع ماركوز ؟

وإذا كان الارهاب الايديولوجي ( ارهاب الستالينيين في الماضي وارهاب متمرسي الربع الساعة الاخير اليوم ) لا يستطيع ان يرغمنا على رفض استنتاجات فانون او ماركوز دفعة واحدة وجملة وتفصيلا ، فاننا غير ملزمين بالمقابل ان نتبنى تلك الاستنتاجات كلها بلا تمحيص ولا تمييز .

ان جوهر مساهمة فانون على سبيل المثال يكمن في رفعه الطبقة الفلاحية الى مرتبة الطبقة القائدة للثورة فسي المستعمرات والبلدان الافريقية . وهو بذلك لم يخالف ماركس وحده ، فهذا امر بديهي ، واما خالف ايضا لينين الذي كان قد ادخل الفلاحين الى الثورة ولكن بالتخالف مع الطبقة العاملة وتحت قيادتها . ويخيل لي ان مساهمة فانون هذه مقبولة وصحيحة بقدر ما ان الثورة في المستعمرات هي في بدايتها ثورة كولونيالية وزراعية معا ، أي ثورة تحرر وطني وتحويل لعلاقات الانتاج في الريف . فعلى هذا المستوى المحدد تلعب طبقة معذبى الارض ، طبقة الفلاحين ، دورا قياديا لا مربة فيه . ولكن من الصعب ان نقر للطبقة الفلاحية بهذا الدور اذا ما اخذنا بعين الاعتبار قانون استمرارية الثورة . فمع دخول الثورة الكولونيالية مرحلة الاستقلال الوطني ، أي مرحلة البناء الاقتصادي والتصنيع ، تتحول قطاعات هامة من الفلاحين الى عمال وتطرح على جدول اعمال الثورة مسألة انتقال القيادة . وفي غالب الاحيان يتم هذا الانتقال لصالح البورجوازية الصغيرة بالنيابة عن الفلاحين . وهنا على وجه تكمن خطورة موضوعة فانون ، اذ هي تترك الباب مفتوحا امام العناصر البورجوازية الصغيرة وتسده دون الطبقة العاملة النامية .

ان شروط تكون الطبقة العاملة ونموها هي ، فسي ظروف طريق التطور الرأسمالي والتطور للرأسمالي على حد سواء، واحدة تقريبا . ففي كلتا الحالتين تنمو الطبقة العاملة بفضل العناصر التي يدها بها جيش الفلاحين شبه اللامحدود . ومن هنا كانت امكانية لقاء ماركس وفانون . ففانون مطور لماركس ومكمل له بقدر ما يمثل تحرر « معذبى الارض » شرطا اساسيا لنمو الطبقة العاملة مستقبلا في المستعمرات المنحدرة . وليس من الممكن ان تنزل الفانونية منزلة المعارضة والمناقضة للماركسية الا اذا اتزلت ايضا منزلة النظرية المطلقة المتعالية على شروط الزمان والمكان .

ونحن لا نجهل ان هناك من يرغب رغبة حارة ، ويدافع العداء المر للماركسية ، في تطويب فانون وفي تكريس الفانونية نظرية مطلقة للثورة في البلدان المتخلفة دونما اعتبار لمراحل هذه الثورة . ولكن ليس من سبيل امام الماركسية اذا كانت تريد ان تقطع الطريق على خصومها اولئك الا ان تدمج بها الفانونية لا ان تنبذها وترفضها بحجة انها تقف خارج معسكر ايدولوجيا الطبقة العاملة . ولو ارادت الماركسية ان تكذب فانون وتخطئه ، كانت هي المخطئة ، لان فانون هو على مطلق الصواب ما دام الامر يتعلق بالثورة الكولونيالية . ولكن الثورة الكولونيالية ليست هي الثورة كلها . والفانونية تظل صحيحة ما دامت تمثل احدى مراحل الماركسية لا اكثر . ورفضها بصورة مطلقة او قبولها بصورة مطلقة يعني في الحالة الاولى الخضوع للارهاب الايديولوجي المتمركس كما يعني في الحالة الثانية الخضوع للارهاب الايديولوجي البورجوازي الصغير .

وما قلناه عن فانون ينطبق على ماركوز ولو في سياق مغاير . فمشروع ماركوز الرئيسي هو الاجابة على السؤال التالي : لماذا لم تقم الثورة في البلدان الصناعية المتقدمة ، أي على وجه التحديد في البلدان التي افترضت النظرية النقدية الكبرى انها ستكون رائدة أقطار العالم اجمع الى الاشتراكية ؟

وطبيعي ان ماركوز ليس هو اول من حاول الاجابة على هذا السؤال . ولقد كان الرائد الاول في هذا المضمار لينين الذي كشف النقاب عن تكون قشرة ارستقراطية على سطح الطبقة العاملة ، قشرة

اشترتها الرأسمالية الاحتكارية بفضل الأرباح الطائلة المجتناة من المستعمرات : واستخدمتها في تنمية وعي البروليتاريا الطبقي . ولكن لينين اعبر هذه الظاهرة الانتهازية ظاهرة عارضة ومؤقتة فسي حياة الطبقة العاملة الأوروبية ونضالها ، واكد ان تطور الطبيعة الثورية كفيل بالحفاظ على نقاء الوعي البروليتاري الطبقي الثوري ضد كسل ادراان الانتهازية ولرشوة والتبع .

ولقد اكد التاريخ صحة هذه النظرية اللينينية وتجاوزها في آن واحد . اكد شطرها الاول وكذب شطرها الثاني . فما اعتبره لينين عارضا ومؤقتا اكد طابع التبات والدوام ، وما كان في النظرية اللينينية مجرد قشرة اصبح فيما بعد ، وليوم بوجه خاص ، نواة البنية البروليتارية .

كيف حدث ذلك ؟ ان احدا قبل ماركوز لم يحاول الاجابة على السؤال بهذا القدر من الشمول والتركيز الذي بذله مؤلف « الانسان ذو البعد الواحد » .

ان نقطة انطلاق ماركوز الاساسية هي الطاقة الهائلة التي بات يتمتع بها المجتمع المعاصر ، مجتمع التكنولوجيا والصناعة المتقدمة ، وما تحقق له هذه الطاقة من هيمنة على الفرد تتجاوز من بعيد كل اشكال السيطرة التي مارسها المجتمع في الماضي على افراده . ولقد كانت السيطرة على مر العصور شكلا لا عقلانيا من اشكال العلاقات الانسانية . وبسبب طابعها للعقلاني هذا على وجه التحديد ، كان في وسع الانسان دوما ان يعقلها ويفضحها ويطلب بوضع حد لها . بيد ان السيطرة الاجتماعية في عصر التقدم التكنولوجي تلبس طابعا عقلانيا مجرد سلفا كل احتجاج وكل معارضة من سلاحهما . ولكن ماذا نقصد بالطابع العقلاني للسيطرة في المجتمع الصناعي ؟ انه قبل كل شيء قدرة هذا المجتمع ، بفضل التطور التقني ، على استباق كل مطابطة بالتغيير الاجتماعي ، وعلى تحقيق هذا التغيير تلقائيا . ومن زاوية الانجازات العظيمة التي حققها المجتمع الصناعي المتقدم تبسو النظرية النقدية المطالبة بتجاوز هذا المجتمع هي للعقلانية وليس هو . اذ هل من المعقول في شيء المطالبة بتغيير مجتمع ثبتت يوميا قدرته على تنمية الانتاجية وتوفير حياة الرغد والرفاه لاجزائه ؟

ولكن هذا ظاهر الامور ليس الا . فالمجتمع الصناعي المتقدم هو برمته مجتمع لعقلاني ، لان تطور انتاجيته لا يؤدي الى تطور الحاجات والمواهب الانسانية تطورا حرا ، بل على العكس من ذلك تماما . فانتاجيته لا يمكن ان تستمر في التطور على الوتيرة الراهنة الا اذا قمعت تطور الحاجات والمواهب الانسانية وفتتحتها الحر ، شأنها في ذلك شأن السلم الذي ينعم به المجتمع المعاصر اذ ان هذا السلم غير متحقق الا بفضل شبح الحرب الشاملة المنذرة دوما بالاندلاع .

ولكن التمييز بين الظاهر والواقع ليس بالامر السهل دوما ، ولا سيما في شروط المجتمع الصناعي المتقدم الذي يميل فيه جهاز الانتاج الى ان يكون كليا ، أي الى ان يمارس تأثيره فسي كل مستويات الحياة المادية والفكرية ، والى ان يحدد الصبوات والحاجات الفردية تحديده للنشاطات والمواقف الاجتماعية . وبكلمة واحدة ، ان مجتمع الحضارة الصناعية يسير قدما نحو تحقيق التلاحم الاجتماعي الداخلي واستبعاد كل شكل من اشكال التناقض والتجاوز والتعالي . ومن هنا كان هذا المجتمع مجتمعا احادي البعد ، مجتمعا يعييك باستمرار الى ذاته ويجرد من المعنى كل محاولة لمناواته ومعارضته بل نفيه وهدمه مسا دام يلي حاجات الناس ويرفع مستوى حياتهم باستمرار .

ولكن هل الحاجات التي يليها هذا المجتمع هي حاجات حقيقية ام كاذبة ؟ حاجات انسانية حقا وتلقائية ام حاجات مصطنعة اصطناعا ومفروضة فرضا ؟ ان الجواب بالنسبة الى ماركوز لا يقبل التباسا : انها حاجات وهمية من صنع الدعابة والاعلان ووسائل الاتصال الجماهيري . واذا كان المجتمع يحرض على تلبية هذه الحاجات المصطنعة ، فليس ذلك لانها شرط استمراره ونمو انتاجيته فحسب ، بل ايضا لانها خير وسيلة لخلق الانسان الاحادي البعد القابل بالمجتمع

الإحادي البعد والتكيف معه . وما الإنسان الإحادي البعد إلا ذلك الذي استغنى عن الحرية بوجه الحرية . وإذا كان هذا الإنسان يتوهم بأنه حر مجرد أنه يستطيع ان يختار بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات التي يكفلها له المجتمع لتلبية « حاجاته » ، فما أشبهه من هذه الزاوية بالبعد الذي يتوهم بأنه حر مجرد أنه منحته لسه حرية اختيار ساداته !

وهنا على وجه التحديد تكمن قوة المجتمع الإحادي البعد : الطابع العقلاني للعقلانيته . فانتقسام المجتمع الى طبقات مستقلة وطبقات مستقلة على سبيل المثال هو أحد المظاهر الأساسية للعقلانيته ، ولكن لنر الى هذا المجتمع كيف يهوه انقسامه الطبقي الواقعي بظواهر التلاحم الطبقي : فالعامل ورب العمل يشاهدان نفس البرنامج التلفزيوني ، والكرتيرة ترتدي ملابس لا تقل أناقة عن ملابس ابنة مستخدميها ، والزنجي الذي لا يتمتع بحقوقه المدنية يمتلك سيارة كاديلاك فارهة . ولكن كل هذه المظاهر لا تعني ان الطبقات قد زالت ، وانما تدل في الحقيقة على مدى مساهمة الطبقات السائدة في تحديد الحاجات والتأثيرات التي تضمن استمرار السيادة لها .

وإذا كان في وسع الإنسان ان يهيز مجتمع السيطرة غير الحر من خلال تسلسل رقابته ، فان المجتمع الإحادي البعد قد قفز فقرة هائلة الى الامام في طريق تزييف وعي الفرد عندما استبدل الرقابة الخارجية المفروضة من فوق بنوع من الرقابة الداخلية المستبطنة . وقد أثبتت هذه الرقابة الداخلية فعاليتها ونجحها الى درجة بات معها الفرد الذي يأبى الانصياع والامتثال للمجتمع القائم يعتبر عاجزا بل مريضا نفسيا لا في نظر المجتمع فحسب بل في نظره هو بالذات .

ان المجتمع الصناعي المتقدم لم يزيّف حاجات الإنسان المادية فحسب ، بل زيف ايضا حاجاته الفكرية ، فكره بالذات . والفكر أصلا عدو لدود لمجتمع السيطرة ، لانه يمثل قوة العقل النقدية ، السالبة ، التي تتحرك دوما باتجاه ما يجب ان يكون لا باتجاه ما هو كائن . وهذه

صدر حديثا :

## رينن الصوري

عن الصمود والامل في حياة  
إنسان الخليج العربي

شعر : علي عبد الله خليفة

البحرين

القوة هي في خاتمة المطاف قوة أيديولوجية . والحسب ان المجتمع الإحادي البعد قد احاط الأيديولوجيا بالازدراء والتحقير باسم عقلانيته التكنولوجية ، بل امتصها وابطل مفعولها . وهذا لا يعني بالطبع انه لم تعد هناك أيديولوجيا . وكل ما هنالك ان المدنية التقنية اصيحت هي الأيديولوجيا . وبرز وجوها من هذه الزاوية المذهب العالمي فسي الفيزياء والمذهب السلوكي في العلوم الاجتماعية . والسمة المشتركة الأساسية لهذين المذهبين هي الالتزام بالواقع المعطي او القائم ، ونسبذ المفاهيم الشمولية او النقدية التي نهىد بالكشف عن بعد آخر لذلك الواقع .

ان عالم الحضارة الصناعية المتقدمة هو عالم كلي استبدادي يملك القدرة لا على وأد أي محاولة لمعارضته ونفيسه فحسب ولا على تهيب ونذوب ودمج القوى الاجتماعية التي يمكن ان تعارضه فحسب ، بل ايضا على استنفار ونعبئة جميع طاقات الإنسان الجسدية والروحانية وجميع القوى الاجتماعية للذود عنه وحمايته . وهنا بالتحديد يكمن دور السياسة .

لقد كانت السياسة ميدانا مفضلا للصراع والتعارض والتناقض ، ميدانا لما هو تنائي البعد . ولم تستطع أكثر الأنظمة الدكتاتورية مفالة وافحاشا ان تلغي في يوم من الايام البعد النافي ، السالب للسيطرة والاكراه . ولكن ما عجزت عنه الدكتاتورية حققتسه « الديمقراطية » ، او على الأقل ذلك الشكل من الديمقراطية الذي تعرفه الآن المجتمعات الصناعية المتقدمة . فهذه المجتمعات تسير أكثر فاكشر نحو نظام الحزبين الاثنين اللذين أصبحا ممثلين لقطبي التعارض في المجتمع . ولكن هذا التعارض هو مجرد وهم يقصد منسه امتصاص المعارضة الحقيقية . والدليل صعوبة التمييز بين برامج الحزبين على صعيد السياسة الداخلية والخارجية معا . والحق ان الهدف الأول من توحيد المعارضات في المصمار السياسي قطع الطريق على القوى الاجتماعية التي يمكن ان تكون عامل التغيير التاريخي . واتحاد المعارضات هذا هو الذي يفسر لنا عجز الاحزاب الثورية في المجتمعات الصناعية المتقدمة وانزلقها المستمر نحو الانتهازية والاصلاحية والاندماج المتعاطف بالنظام القائم . ولا عجب ان كانت هذه المجتمعات تذكر مواطنيها صباح مساء بخطر الشيوعية او الفزو الخارجي المزعوم ، فتسليط سيف هذا الخطر كقيل بقمع ودمج القوى التي لم يستطع الجهاز بعد ان يقمعها ويدمجها . أضف الى ذلك ان الآلة نفسها تلعب دورا سياسيا بارزا فسي المجتمع التكنولوجي . فمكنته العمل وتأليله ابطال مفعول الرفض والنفي الذي كانت تمثله الطبقة العاملة الكادحة ، ودفسع بهذه الطبقة الى الاندماج بالنظام القائم فصار مطلبها الأول المساهمة في تسيير المشاريع لا تغيير النظام الذي يوفر لها نسيما رغد العيش ورفاهه .

بالطبع هذا لا يعني ان من واجب الطبقة العاملة ان ترفض دولة الرفاه باسم مفاهيم « ميتافيزيائية » عن الحرية ، ولكن من الواجب ايضا الا يقيب عن ذهنها أن دولة الرفاه هذه كان يمكن ان تكون أكثر رفاها . ذلك ان لهذه الدولة استنطاليتين حتميتين : التبذير والحرب . فهي أولا دولة تبذير لانه مضطرة باستمرار الى خلق حاجات كاذبة والى تلبيةها ، وهي ثانيا دولة حرب لان الاستعداد لمواجهة الخطر الخارجي المزعوم المههد لمجزاتها هو بالنسبة اليها ضرورة حيوية لابطال مفعول أية معارضة داخلية .

وثقافة المجتمع التكنولوجي تلعب دورا لا يقل خطورة عن دور سياسته في تصفية العناصر المعارضة والمتعالية ، وفي تزويد الفرد بضمير مرتاح سعيد ، أي أحادي البعد .

ان الثقافة هي بالتحريف ثنائية البعد ، لانه لا قوام لها الا اذا ميزت بين الواقع وبين ما كان يمكن ان يكونه هذا الواقع . ببسذ ان الطاقة الهائلة التي تملكها وسائل الاتصال الجماهيري فسي المجتمعات التكنولوجية هي في سبيلها اليوم الى التخفيف من حدة التناقض بين الواقع الثقافي والواقع الاجتماعي عن طريق دمج قيم الأول بالثاني واعدة توزيعها على نطاق واسع وتجاري .

لقد اضعفت الثقافة في المجتمع التكنولوجي بضاعة ، وحنسى موسيقى الروح امست موسيقى تجارية او قابلة للتجبر . واذا كان عالم الادب والفن قد مثل على الدوام بالنسبة الى الناس عالما متعاليا ، بعدا آخر للواقع ، الرفض الاكبر على حد تعبير فلسفة علم الجمال ، فان هذا الرفض قد بات اليوم مرفوضا وامتنع عالم الاعمال « البعد الاخر » .

وكما جرد الادب والفن من انفصاليتهما ، ا فقدت الفريزة الجنسية تساميهما ، واستبدل المجتمع التكنولوجي الايروسية التي هي اكثر من مجرد تعبير عن الرغبة الليبيدية بنوع من واقعية جنسية تقلص عالم الليبيديو الى مجرد نغمة تتطلب التلبية على نحو سريع ومباشر وواقعي مئة بالمئة . وهنا بالضبط تكمن المفارقة : ففي الوقت الذي يتيح فيه المجتمع المعاصر مجالا اوسع بكثير مما في الماضي لتلبية الفريزة الجنسية ، نلاحظ ان مبدأ اللذة يواجه من خلال هذه التلبية تقلصا وانكماشاً . وبكلمة واحدة : ان الجنس فسي المجتمع الاحادي الجانب يصبح هو الآخر احادي الجانب وطاقة من الطاقات المستنفرة بالتالي لحماية ذلك المجتمع .

وما دام الهدف الاول لعقلانية المجتمع التكنولوجي اللاعقلانية هو تقليص مجزئ الفرد الداخلي ، فلا غرو ان وجدنا عملية التقليص هذه تمتد الى عالم اللغة ، عالم التعبير والاتصال الانساني . فعلى هذا المستوى أيضا تبرز الى حيز الوجود لغة احادية الجانب ، لغة ايجابية تستبعد من تركيبها ومفرداتها كل الافكار والمفاهيم النقدية المتعالية . وهذه اللغة هي بوجه خاص لغة محترفي السياسة وصناع الراي العام ( الصحافة والاذاعة والتلفزيون ) . لغة عارية من التوتر والتناقض والتطور والحيروية ، لغة عاملية ، لغة سلوكية ، لغة بلا تاريخ ، بلا ابعاد . وبكلمة واحدة ، لغة مغلقة ، منغلقة على ذاتها .

والمذهب السلوكي في علم الاجتماع ( الاميركي ) يقدم لنا امثلة ساطعة على الجهودات « العلمية » المبذولة فسي سبيل تقليص لفسة الانسان وتجربدها من المفاهيم الشمولية والنقدية التي يمكن ان تضع العالم القائم موضع اتهام . وهذا المذهب يقوم على ترجمة لغة الاحتجاج والاستياء الى مفردات عاملية ، سلوكية تبقي ما هو خاص في نطاق ما هو خاص وتمنع او تفك ارتباطه بالحالة العامة ، حتى يصبح في الامكان حصره ومعالجته على نحو يكفل حسن سير النظام في مجموعه .

ان التحليل ما يزال سلاح البورجوازية ومجتمع السيطرة المفضل . تحليل اللغة الى جزئيات ثابتة ، عاطلة ، لا تحيل الى اكثر مما تفسي ظاهرا ومباشرة ، وتحليل المجتمع الى افراد ، الى حالات خاصة ، الى ذرات ، يعيش كل منها في مداره الخاص ولا يعي الحالة العامة التي يشكل فيها هو نفسه حالة خاصة . وبذلك يلتقي المذهب العاملي في التحليل اللغوي والمذهب السلوكي في التحليل الاجتماعي ليرفضا معا استعمال مصطلح « العامل » على سبيل المثال ، لان مثل هذا المصطلح يحيل الى تركيب ، الى طبقة ، وليرفضا بالقابل لغة لا تتكلم الا عن العامل في المصنع ب التابع للتروست ج .

ولا احد ينكر بالطبع ان اللغة الاحادية الجانب لها هسي الاخرى مفاهيمها « العامة » وتعريفها « الشمولية » . بيد ان هذه المفاهيم تبتذ كل توتر بين الواقع والممكن ، بين الكائن والواجب الكيئونة . فعندما كان الفلاسفة الاغريق على سبيل المثال يعرفون المواطن بأنه رجل حر ، كانوا يعنون بذلك انه يجب ان يكون حرا . اما عندما يتحدث علماء الاجتماع عن المجتمع الاميركي ويصفونه بأنه ديموقراطي على سبيل المثال ، فانهم يعنون بذلك انه ديموقراطي فعلا ، ولا يعنون انه يجب ان يكون ديموقراطيا . ولئن كان المنطق اليوناني قد اتهم بأنه شكلي وعقيم ، فان المنطق التجريبي ( منطق السوسولوجيين الاميركان ) منطق مشبوه بل قسدر ، منطق يفل فساده بظاهر من الواقعية والاختبارية .

لنأخذ على سبيل المثال مفهوم الديموقراطية . ان السوسولوجيين الانفي الذكر يشتمون هذا المفهوم انطلاقا من الاسس الراهنة للمجتمع

الاميركي ، ثم يطبقونه على هذا المجتمع نفسه لينتهوا الى هذه النتيجة العبقرية الا وهي ان المجتمع الاميركي مجتمع ديموقراطي ! وهذا هو بالاصل معنى اصراهم على ان مهمة المفاهيم هي ان تصف لا ان تحدد ما يجب ان يكون ، ان تترجم الواقع لا ان تقيمه . وهم يفعلون ذلك بحجة ان علم الاجتماع يجب ان يكون علما ، أي منهجا محايدا وموضوعيا يشهد بشدة احكام القيمة ، متناسين ان نقطة انطلاقهم بالذات تركز الى حكم قيمة .

ان كل البناء الفكري والفلسفي للمجتمع الاحادي البعد يقوم على اسطورة ، اسطورة حياد التكنولوجيا . والحق ان ما يسمى بالحيساد التكنولوجي قد رسم بميسمه العصر كله وثقافة العصر كلها . وما هذا الميسم الا المنطق السيطرة والرقابة ، ولكنها السيطرة المستبطنة والرقابة المفروضة من الداخل .

ان التكنولوجيا هي بالتحريف علم تحويل الاشياء ( اشياء الطبيعة ) الى أدوات مروضة ، مسيطر عليها ، بهدف استقلالها لاغراض اجتماعية وحضارية . ان التكنولوجيا هي فن غزو الطبيعة والتغلب على مقاومتها الخرساء . ومن هذه الزوية تلعب التكنولوجيا دورا تقديريا لا يباري فيه الا الرجعي الفبي . ولكن عندما اصبحت التكنولوجيا هسي الشكل العالي للإنتاج المادي ، أي عندما اصبحت تملك القوة الكلية المحددة لحياة العصر وثقافته في ظل مجتمع طبقي قمعي اضطهادي ، اصبح منطقها الذي هو منطق سيطرة الانسان على الطبيعة المنطق المحدد للعلاقات الاجتماعية أيضا ، اي علاقات الانسان بالانسان . وهكذا ، وبدلا من ان تكون قوة التكنولوجيا قوة تحريرية عن طريق تحويل الاشياء الى أدوات ، امست عتبة في وجه التحرر عن طريق تحويل البشر الى أدوات . ذلك ان الانسان اذا ما قبل ولو لمرة واحدة بمنطق السيطرة فلا محيد له بعد ذلك عن القبول به على طول الخط . والمشكل كل المشكل يكمن في انه تناسى ان السيطرة على شعب من الالات والادوات هي أيضا سيطرة .

ونحن نعلم ان ماركوز اتهم عند هذه النقطة المحددة من تحليله بأنه مفكر طوبائي ، بل رجعي ، يريد ان يعود بعجلة الحضارة الى الوراء ليمارس طقوس عبادته في محراب عصر باند لم تكن فيه الآلة التكنولوجية قد ظهرت بعد الى الوجود . ولكن لا بد ان نضيف على الفور ان هذه التهمة لا أساس لها من الصحة وان ماركوز أبعد مما يكون عن جهالة العصور الوسطى ، بل حتى عن جهالة الطوبائيين والاخلاقيين من أصحاب النيات الطيبة . وبديهي ان فكر ماركوز هو فكر اخلاقي من حيث انه لا يرفض احكام القيمة ، ولكن ماركوز في الوقت نفسه هو اخلاقي انصر التكنولوجيا . وهذا يعني انه لا يرفض التكنولوجيا على نحو مسبق ومجرد وقبلي ، بل على العكس فهو يؤمن عميق الايمان بان منجزات التكنولوجيا قد اوجدت لأول مرة في التاريخ الامكانية الواقعية لتحرر الانسان . ان ماركوز اخلاقي من حيث أنه يعتبر تحرر الانسان الغاية الاخيرة والمثلى ، ولكنه في الآن نفسه اخلاقي العصر التكنولوجي من حيث انه يؤمن بان تحرر الانسان لم يعد غاية ميتافيزيائية بعد ان قطعت التكنولوجيا شوطا بعيدا في السيطرة على الطبيعة .

واذا كان ماركوز يحتج على الواقع الراهن للتكنولوجيا وللعقلانية التكنولوجية ، فهذا لان هذه العقلانية لاعقلانية من حيث انها لا تجعل من تحرر الانسان علتنا الغائية ، وهذا لان الواقع التكنولوجي الراهن هو واقع استعباد الانسان وتشويهه وتحوله الى أداة لا واقع تحرره .

وماركوز صريح كل الصراحة ، ولا يخشى ان يتهم بالتناقض ، ولا يلجأ الى اللف والدوران بهدف تجنب هذه التهمة . ففي رأيه - وهنا تكمن المفارقة - ان الشرط المسبق والضروري لتجاوز الواقع التكنولوجي الراهن هو تحقق هذا الواقع واكتمال صيرورته ، وان العقلانية الجديدة ، عقلانية الانسان المتحرر من شتى اشكال السيطرة ، لن تبرز الى الوجود الا من خلال تحقق المشروع التكنولوجي واكتتمسال صيرورته . وبعبارة اخرى ، ان الانسان لن يتحرر من التكنولوجيا الا بواسطة التكنولوجيا وعن طريق تحرير التكنولوجيا .

كيف ذلك ؟

ولما ركوز من التواضع ما يكفيه لان يعتبر أنه أدى واجبه اذ أسهم فسي تنفيذية وعي ضرورة التغيير وان يكن قد خلص الى الاستنتاج بان طريق هذا التغيير مسدود في الوقت الراهن .

ومن حق القارئ علينا بعد هذا الاستعراض للتحليل الماركوزي أن نعود به الى السؤال الاول الذي كان نقطة انطلاقنا : أين تقف مساهمة ماركوز ؟ أداخل « معسكر أيديولوجيا الطبقة العاملة » ام خارجه ؟

ان الاجابة على هذا السؤال غير ممكنة الا اذا حددنا هنسا أيضا نقطة الانطلاق . ونقطة الانطلاق هي ملاحظتنا بان أيديولوجيا الطبقة العاملة تواجه اليوم ومنذ نصف قرن من الزمن ازمة حادة في البلدان الغربية المتقدمة صناعيا . والدوغماني الكابر هو وحده الذي يستطيع ان ينفي وجود الازمة وان يؤكد ان كل شيء على احسن ما يمكن ان يكون في خير العوالم الممكنة .

ان طريق الثورة ليس مسدودا فحسب في بلدان الغرب المتقدمة صناعيا ، بل هو أيضا يزداد انسدادا ويبدو اكثر فاشرا لا معقولا ولا واقعا . وما دمنا نفترض سلفا بان طريق الثورة هو طريق الطبقة العاملة ، فاننا نستطيع بكل اطمئنان ان نؤكد ان مساهمة نظرية ( هي هنا مساهمة ماركوز ) تسلط المزيد من الضوء على تظاهرات ذلك الانسداد وعلى عوامله لا يمكن تجريدها بتهممة الوقوف خارج معسكر أيديولوجيا الطبقة العاملة . بل نستطيع ان نؤكد ، باطمئنان أيضا ، ان أيديولوجيا الطبقة العاملة ستقف خارج معسكر الثورة بالذات وستزداد نايبا عنه اذا لم تحاول مخلصا ان تدمج بها كل المساهمات النظرية التي تعمل على تقريب المسافة - التي لا تنسي تزداد بعدا - بين الثورة وأيديولوجيتها .

ان النظرية الماركسية لن تعود تلك النظرية النقدية الكبرى اذا لم تتمثل وتدمج بها كل اشكال النقد الموجهة الى المجتمع القائم حتى وان كانت منطلقات هذا النقد غير ماركسية . واذا كفت الماركسية عن ان تكون تلك المحصلة النقدية الكبرى ، فلن يكون لها من مآل غير المتحف أو كتب التاريخ .

وبمقدار ما تمثل مصطلحات ماركوز الاساسية مصطلحات نقدية وجديدة ، فانها لن تكتسب فعاليتها كاملة الا اذا احتلت مكانها في صلب النظرية النقدية الكبرى . وبصراحة اقول ان هذه النظرية ستبدو ناقصة ، غير كلية ، اذا لم تبادر الى تمثل مصطلحات ماركوز النقدية الاساسية كالمجتمع الاحادي البعد والطابع اللاعقلاني لعقلانيته .

وغني عن القول بعد هذا - ولكن بعد هذا فقط - أننا لا نتبنى ،

ان هذا التناقض الظاهر لا يمكن حله الا اذا فهمنا ان التكنولوجيا هي في نظر ماركوز سياسة قبل ان تكون أي شيء آخر . هي أولا سياسة لان منطقتها الاول هو منطق السيطرة ، والسياسة تقترض دوما وجود سائسين وممسوسين . وهي أيضا سياسة لانها تخدم سياسة القوى الاجتماعية المسيطرة في الوقت الراهن .

وبدبهي انه ما دامت التكنولوجيا قائمة على منطق السيطرة والاضطهاد ، فان تحرر الانسان لا يمكن ان يكون نتيجة عفوية للتقدم التقني في حد ذاته . وهذا معناه انه لا بد أولا من انقلاب ، وانقلاب سياسي على وجه التحديد . فمثل هذا الانقلاب هو وحده الذي يستطيع ان يحرر التكنولوجيا من خضوعها لسياسة القوى المسيطرة التي تستخدمها بدورها كأداة سياسية . كما ان هذا الانقلاب هو وحده الذي يتيح لمنطق السيطرة والاضطهاد في التكنولوجيا ان يتحول وان يدخل في مرحلة جديدة ، مرحلة السيطرة على القوى الفاشمة اللامقهورة في الطبيعة والمجتمع لا السيطرة على الانسان الذي يجب ان يكون حرا كما هو الحال اليوم .

ان الانقلاب السياسي قد بات اليوم ضروريا اكثر من أي وقت مضى ، ومن وجهة نظر تطور التكنولوجيا وتحررها على وجه التحديد . فلقد بلغت الحضارة الصناعية تلك الدرجة التي ما عاد ممكنا معها ان يتجاهل العلم الملل الغائية . ولئن كانت مشكلات الغائية ، مشكلات الهدف النهائي الذي هو تحرر الانسان ، كانت تعتبر الى عهد قريب مشكلات دينية او اخلاقية او ميتافيزيائية ، منفصلة عن العلم والمنهج العلمي وملصقة بالتأمل الفلسفي والطوباني ، فانها اليوم قابلة لان تصبح موضوع العلم الاول . ولكن هذه المشكلات لن تستعيد مكانتها كمشكلات تقنية داخل المجتمع المعاصر الذي وسع الى ابعاد الحدود نطاق التكنولوجيا ، الا اذا تحققت اول انقلاب سياسي الذي يفترض فيه ان يضع حدا لسيطرة القوى الاجتماعية الفاشمة التي تقف عقبة كأداء امام تبني المشروع العلمي والتكنولوجي للمل الغائية ، للهدف النهائي الذي هو تحرر الانسان .

ولكن من هو عامل هذا الانقلاب السياسي ؟ هنا بالتحديد يبرز وجه ماركوز المشائم والمنفصل عن النظرية الماركسية . فماركوز لا يكتفي بان يعلن ان الطبقة العاملة لم تعد عامل التغيير الاجتماعي ، بل يضيف أيضا بان هذا العامل لا وجود له في المجتمع المعاصر . وهذا لا يعني ان ماركوز يرفض النظرية النقدية الكبرى او يشكك في صحتها ، فهو يلاحظ معها بالفعل ان اللاعقلانية في المجتمع المعاصر لا تكف عن النمو ، وان الانتاجية تنقلص بفعل التبذير ، وان العدوانية تزداد بروزا ، وان خطر الحرب يستفحل ، وان الاستغلال يتفاقم ، وان الانسانية تتجرد من كل ما هو انساني . ويلاحظ أيضا ان هذه الوقائع كلها تتطلب انقلابا تاريخيا عاجلا . ولكن المشكل ان عامل هذا الانقلاب لم يعد موجودا ، وبذلك تفقد النظرية الجدلية قدرتها على ان تكون ايجابية وعلى ان تقدم الحلول العملية ، من غير ان تكف في الوقت نفسه عن ان تكون صحيحة .

ما الحل اذن ؟

ان ماركوز يكتفي بان يلاحظ ان طريق هذا الحل مسدود في الوقت الراهن ، ومن وجهة نظر القوى الاجتماعية القادرة على ان تكون النفي الحي للمجتمع القائم . واذا كان ثمة من آمال ، او بصيص من امل ، فانه معلق على القوى التي لم يتمكن المجتمع القائم من دمجها به: النبوذيين على مختلف انواعهم واللامنتمين والعاطلين عن العمل والطبقات والعروق والالوان الاخرى المستقلة . ولكن هذه القوى قوى بدائية ، وقد يختلف او لا يختلف حصارها للحضارة المعاصرة عن حصار المد البربري للحضارة القابرة .

وزبدة الكلام ان ماركوز يؤكد ان التغيير ضروري ويضيف في الوقت نفسه انه لا يكفي ان نفهم ان التغيير ضروري حتى يصبح ممكنا حقا . ان فهم ضرورة التغيير شرط لازم ولكن غير كاف للتغيير فعلا وواقعا .

# عاشق من فلسطين

لشاعر المقاومة  
في الارض المحتلة  
محمود درويش

٢٥٠ ق . ل

صدر حديثا

## الكلمات إلى ضوءٍ بعيدٍ

هنا الفاصلُ

هنا جسر الدموع السود ..

والمقتول والقاتل

هنا تساقط الأوراق

هنا تخبو سواقي النور في الاعماق

هنا لا يقطف العشاق

سوى الحسره

سوى الهممة المره

سوى ما تمنح النظره

سوى ما يمنح القاتل :

نداء عبر هذا العالم القاحل

\*\*\*

إذا ما أورق الليل

مصايحبا بلا عد ..

شريطا من فراشات بلا حد !

ونامت آخر الاصوات

يناديني من البعد

ضياء راعش ناء

فيسري الرأس بالخطوات

ويحكي عالم الصمت :

هنا بيت !..

هنا مملكة الصوت !

هنا أسره ! ..

ويطفى مرة أخرى بقلبي عالم الاموات

\*\*\*

بعيد أنت يا بيتي

أما من يردم الحفره ..؟

بعيد أنت يا بيتي

أما من يوصل الزهره ؟ ..

سلمان الجبوري

بفداد

وليس من واجبتنا اصلا ان نثبني تحليلات ماركوز واستنتاجاته برمتها ،  
جملة وتفصيلا .

فمن الواضح على سبيل المثال ان ماركوز عندما يتكلم عن المجتمعات  
الصناعية المتقدمة فانه يقصد المجتمعات الرأسمالية واللا رأسمالية معا .  
ونحن لا ننكر ان « الاحادية البعد » قد تكون احدى صفات الدول  
الاشتراكية في واقعها الراهن ، ولكن الايمان عامر في صدورنا بان هذا  
المظهر الاحادي البعد عارض ومؤقت ، وبانه نتيجة الماضي اكثر منه ابن  
الحاضر ، وبان المجتمعات الاشتراكية تتقدم الآن نحو « ثنائية البعد »  
بعد ان تمثرت طويلا في المرحلة الاحادية البعد ( الستالينية ) ، وذلك  
بعكس المجتمعات الرأسمالية التي تتقدم باطراد من ثنائية البعد الى  
احاديته .

ثم اننا نخالف ماركوز في اعتقاده بان الطبقة العاملة في البلدان  
الغربية المتقدمة صناعيا قد اندمجت نهائيا بالمجتمع وأصبحت قوة  
« ايجابية » . ويخيل لنا ان ماركوز قد تسرع عندما خص بالذكر  
الحزبين الشيوعيين الفرنسي والاطالي كمثال على صيرورة الاندماج  
تلك . ولهذا فاننا نشك في صحة الاستنتاج الذي وصل اليه من انه  
ان يتغير شيء البنية في المجتمعات الغربية اذا ما اصبح جهاز الانتاج  
فيها خاضعا لرقابة تحتية ، أي لرقابة الطبقة العاملة . فحتى لو  
اندمجت البروليتاريا نهائيا بالمجتمع القائم ، فانه يخيل لنا ان  
الرقابة التحتية او العمالية على جهاز الانتاج قابلة - قابلة فحسب -  
لان تكون بداية الانقلاب السياسي بالمعنى الذي يعطيه ماركوز لهذا  
الشعار .

والحق ان تسرع ماركوز في ادانة المجتمعات والاحزاب ذات الطابع  
« السوفيياتي » ناجم ، على ما يخيل لنا ، عن انتماء ماركوز الى  
« النظرية الصينية » حتى وان لم يصرح بذلك . وهذا الانتماء  
- اللامباشر من الجائز - هو الذي يفسر تبني ماركوز لنظرية حصار  
منبوذي العالم لترفه ، تلك النظرية التي تذكرنا الى حد كبير بنظرية  
لين بياو عن حصار ارياف العالم لمده . ولكننا لن نعود الى مناقشة  
هذا الموضوع هنا ، بعد ان اوفينا حقه - على ما نأمل - في كتابنا  
« النزاع السوفيياتي - الصيني » .

وتبقى بعد هذا نقطة اخيرة : ما علاقة الفكر الماركوزي بحركات  
التمرد الطلابية الاخيرة في أوروبا ؟ وهل صحيح ان ماركوز هو الزعيم  
الروحي لهذه الحركات كما تحاول الصحافة ان تقول ؟

الحق اننا لا ننكر ان هذه الحركات الطلابية تأثرت الى حد  
- كبير او صغير ؟ - ب « تأملات » ماركوز . ولكن لا بد ان نضيف بان  
ماركوز لم يتكلم في أي موضع من كتاباته عن الحركة الطلابية ولم يتنبأ  
بها . كل ما هنالك ان الطلاب والشباب « اكتشفوا » ماركسوز ،  
اكتشفوا صيغة ايدولوجية لما يحسون به من تبرم واستياء واحتجاج .  
وهذا ان كان يدل على شيء فانما يدل على ان افكار ماركوز قابلة لان  
تكتسب قوة واقعية بالرغم من صدورها عن « مثقف » و « فيلسوف »  
تجاوز العقد السابع من العمر .

ومن الممكن ان تكون حركات التمرد الطلابية - كما وصفها او اتهمها  
البعض - حركات عفوية وذاتية وفوضوية تقف على هامش النضال المنظم  
والموضوعي للطبقة العاملة . ولكنها تظل بالرغم من ذلك حركات احتجاج  
ونقد موجهة ضد مجتمع الاضطهاد القائم . ومن هنا على وجه التحديد  
تنطرح ضرورة دمجها - لا نبذها - بالممارسة النقدية الكبرى ، بنفس  
الدرجة والاهمية التي تنطرح بها ضرورة دمج مستلهمات الفكرية  
( الماركوزية ) بالنظرية النقدية الكبرى . (٤)

### جورج طرابيشي

✦ المقدمة العربية التي كتبها المترجم الاستاذ طرابيشي لترجمة  
كتاب هـ . ماركوز « الانسان ذو البعد الواحد » الذي يصدر هذا الشهر  
عن دار الآداب .